الأدب عند السلاطين العثمانيين في العصر الحديث، النص بين الإبداع والتوثيق التاريخي

Literature of the ottoman sultans in the modern era, the text between creativity and historical documentation

د. عمري جبري

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج (الجزائر)

amardjebri@gmail.com

amar-djebri@univ-bba.dz

ملخص:

يزخر تاريخ سلاطين الدولة العثمانية(1299م-1923م)بالعديد من الشعراء والأدباء، الذين كانوا مولعين بالأدب وبمجالسة الأدباء وكانت مجالسهم مجالس علم وأدب، يحضرها الشعراء والأدباء وينالون منها العدبد من العطايا والمنح والهدايا، من بين هؤلاء السلاطين الشعراء نذكر كل من: **عثمان بن أرطغل، أورخان الغازي، ومحمد الفاتح، وبايزيد الثاني، وسليمان القانوني**...الخ، الذين تركوا دواوين شعرية كاملة كتبوها خلال مرحلة حكمهم، سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نركز على بعض النماذج من السلاطين العثمانيين الذين كتبوا في الأدب والشعر سواء من النواحي السياسية أو العسكرية أو الأدبية، كيف عالج هؤلاء السلاطين العثمانيون النص الأدبي بين الإبداع والتوثيق التاريخي؟.

الكلمات المفتاحية: النص الأدبي، العثمانيين، الشعراء، التوثيق التاريخي.

Abstract:

The history of the sultans of the Ottoman Empire (1299 AD-1923 AD) abounds with many poets and writers, who were fond of literature and sitting with writers. Orhan Al-Ghazi, Muhammad Al-Fateh, Bayezid II, Suleiman the Magnificent...etc., who left complete collections of poetry that they wrote during their rule. Through this paper, we will try to focus on some examples of the Ottoman sultans who wrote in literature and poetry, both in terms of politics. Military or literary, how did these Ottoman sultans treat the literary text between creativity and historical documentation?

Key words: Literary Text; Ottomans; Poets; Historical Documentation.

1–محمد الفاتح الأديب والشاعر:

أ–التعريف بمحمد الفاتح:

هو محمد خان سابع السلاطين العثمانيين ولد بأدرنة، لقب بالفاتح لفتحة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية البيزنطية عام 1453م، اهتم والده مراد الثاني بتكوين ابنه محمد أورخان في العلوم والأدب فجلب له العديد من العلماء والأدباء لتكوينه ما انعكس على شخصية ابنه، وغزارة علمه فأتقن محمد الفاتح العربية والفارسية واللاتينية واليونانية والعصمانلية وكان يكتب ويتكلم بها جميعا، بعد توليه للحكم قام ببناء مكتبات ومعاهد وتشجيع طلبة العلم وكان يخصص معاشات سنوية لبعض الشعراء الذين رفضوا المناصب السياسية في الدولة مثل: الشاعر ''جامي'' وكما تذكر المصادر أن بعض من وزائه كانوا شعراء مثل الوزير **''عليشير نوائي" و"أحمد باشا" و"سنان باشا"** الشاعر والأديب، **مما** أدى إلى ازدهار الحياة الأدبية خلال عصره [1].

الجدير بالملاحظة هو ميل الشعراء والأدباء العثمانيين للأخذ عن الأدب الفارسي، من خلال انتشار الكلمات الفارسية في اللغة التركية بشكل كبير، مع الألفاظ العربية ويظهر

هذا جليا في شعر: **سنان باشا وأحمد باشا** ، هذا ما سوف نراه في عرض المراسلات بين سلاطين الدولة العثمانية وبين ملوك الروم والعرب والعجم فيما بعد.

ب–مختارات غزلية من شعر محمد الفاتح:

لقد كتب محمد الفاتح غزلياته من "**بحر الهزج**" وتتجلى فيها بوضوح ثقافته الإسلامية الغزيرة، كما تبرز لنا قدرته الكبيرة على مزج تلك الثقافة الإسلامية الغزيرة بموهبته الشعرية، من بين ما جاء في قصائده نذكر ما يلي:

(إن وجهك هلال عيد وجدانك ليلة الإسراء أما غمزتك فهي يد موسى وشفتاك القرمزيتان هما نفس عيسى) [(2)]

(وهذا الجمال الإلهي الذي منحه الله لك لم يصور "ماني"[(3)] العالم نظيرا لصورتك، إن يدك تشبه القمري أما وجهك فهو مرآة صافية).

حيث يتضح لنا جليا من خلال هذه الأبيات الشعرية، استعانة السلطان والشاعر محمد الفاتح بثقافته الإسلامية والتي تبرز من خلال توظيفه للكلمات الإسلامية التالية: **هلال العيد–ليلة الإسراء–سيدنا موسى وعيسى عليه السلام**، كما يستوحي محمد الفاتح من الأدب الفارسي الرموز والإشارات المختلفة ليصوغ لنفسه معاني وصورا خيالية في نص أدب خاص به، فهو يشير لنا في البيت الثاني من غزليته، لقوله تعالي:**(ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين)**(الأعراف 108).

بينما يرى الناقد الأدبي كمال أديب أن حافظ الشيرازي قد قال كلاما شبيها بذلك، كما يلاحظ أيضا تأثر محمد الفاتح بحافظ أيضا، عندما نقل عنه بيتا من الأدب الفارسي.

كما إن للشاعر محمد الفاتح ثقافة دينية مغلفة بإيحاءات صوفية ومصطلحات مختلة، التي ينسجها في صورة فنية رائعة الجمال تنم عن نفس شاعرة حساسة، عن أداة شعرية متحكمة كالقصيدة التي يقول فيها:

(إذا ذرفت عيني الباكية الدموع تدفعها ألام قلبي، يتضح لك غالبا سري المكنون، انك في مسند الحصن أما أنا فمداس بتراب الطريق).

لقد كشف لنا السلطان محمد الفاتح عن مكنون نفسه وعن مدى عمق رؤيته للحياة الدنيا وللدار الآخرة، فهو لا يتمسك بها رغم أنه ذلك القائد الغازي والمنتصر والقائد المحنك أيضا، فهو المسلم الذي لا يطمع إلا في رضاء الله، هو الذي يقول عن ذلك في أحدى أبياته: **ولا ينتظر الشهرة العاقل الذي يرى فترة فنائه سعادة، والذي يريد زاوية العزلة لا يرغب في أن يصير مشهورا، من يجعل قلبه مليئا بالدم لا يميل إلى الصهباء الحمراء اللون، ولا يطلب اللؤلؤ المنثور** [4] **، من ملأ ذيله بالدموع** [5].

يتضح لنا في هذه الغزلية السابقة تأثر الشاعر بالتصوف أسوة بشعراء ذلك العصر، هو تأثر بقدر معقول أضفى جوا روحانيا محببا للنفس من خلال المعاني والألفاظ المستخدمة، كما يفاخر محمد الفاتح في شعره بأنه فاتح اسطنبول تلك المدينة التي استعصت وامتنعت عن العديد من الصحابة والتابعين اللذين أرادوا فتحها، وأنه صدق فيه حديث رسول الله (ص) الذي قال:"**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش"(رواه الترميذي في مسنده)** [6].

هكذا يتغنى الفاتح أيضا بكونه سلطان للدولة العثمانية التي يرى أن عرش العالم لا يوازيها ولا يعوضه عنها، كأنه بهذه الأبيات أيضا أراد أن يؤكد لنا قناعته التامة بأنه في أرفع وأعز مكانة بترأسه عرش الدولة العثمانية العلية، التي كانت أقوى دولة في العالم، كما نجد في شعر الفاتح "**جناسا ناقصا**"في الألفاظ التالية:(**نالان–قان–كريان–مهمان–امكان–سلطان**) [7].

2–سليمان القانوني الأديب والشاعر:

أ–التعريف بالسلطان سليمان القانوني:

ولد سليمان في مدينة طرابزون الساحلية والواقعة في شرق سواحل التركية المطلة على مياه البحر الأسود، في يوم 06 صفر عام 900 هجرية، هو حفيد السلطان **بايزيد الثاني**(1447م-1512م) ابن السلطان محمد الفاتح، وهو ابن السلطان **سليم ياووز** أو سليم الأول(1512م-1520م)، لقد تلقى السلطان سليمان القانوني تعليما وتربية دينية جيدة في قصر طرابزون، باعتباره الابن الوحيد للسلطان سليم الأول، تربى سليمان مع أخوه من الرضاعة واسمه يحي وهو ابن قاضي عمر أفندي وهو الذي أصبح عالم في الدين والتصوف، كما عين السلطان سليم الأول العالم الكبير"**خير الدين أفندي**" لتدريس ابنه الدين والعلوم الشرعية والقراءة والكتابة، ما ساهم في تكوين شخصيته الأدبية والدينية [8].

ب–السلطان سليمان القانوني الشاعر والأديب:

لم يسبق وان اهتم سلاطين الدولة العثمانية بالأدب والشعر قبل السلطان سليمان القانوني، الذي يعتبر أول السلاطين الذين اهتموا بهذا الجانب وهو الذي كان شاعرا وأديبا في نفس الوقت، كما أن خمسة من أبنائه كانوا شعراء غنائيين كما يعتقد انه من أحسن السلاطين الناظمين للشعر في الخلافة العثمانية، كما أن جهود السلطان سليمان القانوني كانت تلقى اهتماما كبيرا من طرف وزيره الأول **إبراهيم باشا** [9] ، بمساعدة الدفتر دار **اسكندر جلبي** [10] إضافة إلى ذلك فان شعراء ذلك العصر كانوا يتمتعون بحماية خاصة من السلطان سليمان القانوني، مثل الشاعر: **باقي وخيالي ولا معي ورحمي...الخ**.

ج–ديوان السلطان سليمان القانوني:

1–ديوان محبي دراسة من ناحية الشكل:

طبع ديوان محبي في اسطنبول عام 1893م وذلك تحت توجيهات ورعاية السلطانة "**حضرة عادلة**" كريمة السلطان الغازي محمود الثاني، كما هو موجود في صدر هذا الديوان، ويقع الديوان في حدود 236 صفحة وتوجد منه نسخة مطبوعة بالغة العربية، بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم 7600 ت، كما توجد به عدة نسخ مخطوطة في مكتبة السلطان

محمد الفاتح، بأرقام 392-394-323، كما توجد نسخة أيضا في متحف آيا صوفيا بالسليمانية تحت رقم: 3971 [11].

2-ديوان محبي دراسة من ناحية المضمون:

عند تصفح ديوان محبتي نجده منظوما في الغزل [12] وتخلوا غزلياته من أغراض المدح والهجاء والرثاء والفخر والوصف، كما كتب السلطان سليمان القانوني أشعار ديوانه بالعربية والتركية والجغطائية بإجادة تامة لتلك اللغات ولم يتأتى ذلك إلا بعد جهد كبير، ورغبة حقيقية منه، كما تدل معظم غزلياته على شخصيته وع عظمة ناظمها فعلى الرغم من أنه أكثر السلاطين نجاحا وفتوحات في العالم، إلا أنه لم ينسى الحياة الآخرة.

قد تجلت هذه المعاني في قوله:

من ارتضى الفقر لا يريد قصرا ولا ايوانا* لا يريد خبزا ولا مأكلا غير زاد الألم.**

من تربع على عرش الاستغناء* وارتضى القناعة، لا يريد أن يكون سلطان الأقاليم السبعة**

حتى يكون حرا طليقا*إن الذي تشع أهاته على العالم لا تساوي الشمس أمامه ذرة**

ولا يبتغي القمر المنير*من يقيم في حي الحبيب هو الذي يكون في أهل العشق**

لا يفعل كالمجنون ويطلب الصحراء والجبل*إن قصر ملك العشق مفتوح فليأت من يرغب [13].**

3-خاتمة استنتاج وتقييم:

من خلال المقاربة التاريخية التي قمنا بها في دراسة ديوان السلطان سليمان القانوني وشعر وغزليات السلطان محمد الفاتح يمكننا أن نستنتج ما يلي:

1-إن السمة الأساسية في شعر السلطان سليمان القانوني لم تكن في ذلك الرونق اللفظي كما كان الأمر لدى الكثيرين من معاصريه من الشعراء الأتراك، بل كان في الطابع الغالب عليه هو الشعور الصادق.

2-لقد توفرت التجارب الشعرية للسلطان الشاعر(سليمان القانوني) ففضلا عن التجارب التي تمر بحياة الإنسان العادي، فان حياته كسلطان لدولة قوية ومحارب مقدام خاض معارك وحروب وفتوحات كبيرة، كل ذلك وغيره وفر له تجارب حياتية وشعورية خصبة لشعره، لا تتوفر لأي شخص عادي.

3-لم يخجل السلطان سليمان القانوني وهو السلطان الوحيد الذي لقب: "**بملك البرين(قارتي افريقيا وأسيا) والبحرين (الأحمر والمتوسط) وحامي الحرمين الشريفين(مكة والقدس)**" من الحديث عن لوعة الحب وقسوة المحبوب، كان غاية في التواضع وهو يشكوا قسوة الحبيب له بهجره، حفلت معظم غزليات الديوان التي كتبها في العشق بالألفاظ مثل(**الألام–جرح القلب–دموع العين–الأنين–البكاء–السهاد**).

4-من أهم ما تكشف عليه هذه الدراسة هي الخصائص النفسية والوجدانية للسلاطين العثمانيين أيضا، هو الجانب الذي لم تعنى به الدراسات السياسية والعسكرية السابقة للسلاطين العثمانيين، ليكون الشعر والغزل والكتابة هي الوحيدة القادرة على كشف نفسية وعقيدة هؤلاء السلاطين.

5-رغم أن القيمة الفنية لديوان السلطان سليمان(محبي) لا تضعه في مصاف الشعراء العثمانيين الكبار، كما أوضح معظم نقاد الأدب التركي، إلا أن هذا الديوان يعد شهادة بليغة على اهتمامه بالجوانب الإنسانية في تجربته الشعرية، اهتمامه بالثقافة الأدبية والدينية وهو جهد إضافي يمثل عبئا كبيرا بالنسبة لشخصه.

6-ميل الشعراء والأدباء العثمانيين للأخذ عن الأدب الفارسي، من خلال انتشار الكلمات الفارسية في اللغة التركية بشكل كبير، مع الألفاظ العربية.

7–لقد كتب محمد الفاتح غزلياته من "**بحر الهزج**" ويتجلى فيها بوضوح ثقافته الإسلامية الغزيرة، كما تبرز لنا قدرته الكبيرة على مزج تلك الثقافة الإسلامية الغزيرة بموهبته الشعرية.

8–لقد استوحى السلطان محمد الفاتح من الأدب الفارسي العديد من الرموز والإشارات المختلفة، ليصوغ لنفسه معاني وصورا خيالية في النص الأدبي.

9–للشاعر محمد الفاتح ثقافة دينية مغلفة بإيحاءات صوفية ومصطلحات مختلة، التي ينسجها في صورة فنية رائعة الجمال تنم عن نفس شاعرة حساسة، عن أداة شعرية متحكمة.

10–كشف لنا السلطان محمد الفاتح عن مكنون نفسه وعن مدى عمق رؤيته للحياة الدنيا وللدار الآخرة، فهو لا يتمسك بها رغم أنه ذلك القائد الغازي والمنتصر والقائد المحنك أيضا.

11–يتضح لنا في غزلية السلطان محمد الفاتح تأثره بالتصوف أسوة بشعراء ذلك العصر.

الهوامش :

(1) زينب سعد زغلول أبو سنة، **الشعراء السلاطين العثمانيون نماذج ودراسات**، مكتبة زهراء الشرق للنشر، ط 01، 2006، مصر، ص ص 11–16.

(2) ديوان الفاتح، ص 01.

(3) ماني: هو صاحب المذهب المانوي المنشر في إيران، وتركستان قبل الإسلام، هو الذي كان ينشر دينه بكتاب فيه الكثير من الرسومات والصور، أنظر: زينب سعد زغلول، المرجع السابق.

(4) اللؤلؤ المنثور: كناية عن الثروة في الحياة الدنيا.

(5) الدموع: كناية عن خشية الله.

(6) هذه الكلمات منقوشة بالذهب الخالص علة مدخل مسجد أيا صوفيا، قد روي الحديث عن بشر الغوني ويقال الخثعمي، في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج 03، ص 335، في الإصابة، ج 01، 157، الاستيعاب ج 01، ص 148، والجامع الصغير، ج 02.

(7) زينب سعد زغلول، المرجع السابق، ص 26.

(8) فريدون أومجان، **سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين–حقائق في ضوء المصادر**، ط 02، ترجمة جمال فاروق وأحمد كمال، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، 2015، ص 14.

(9) إبراهيم باشا: هو ابن لبحار وملاح يوناني الأصل جلب انتباه السلطان سليمان القانوني له ببراعته في العزف على الكمان، حظي بمحبة السلطان سليمان له، الذي عينه بعد توليه للحكم وزيرا وقام بمصاهرته بتزويجه لشقيقته وطيلة فترة عمله مستشارا أولا مع السلطان لمدة 13 سنة(1523م–1536م) كاملة دارت بينها علاقة قوية جدا، إلى غاية أن وجد صباح ذات يوم مشنوقا في أحدى أرجاء القصر السلطاني، لأسباب لم تذكر وتبقى مجهولة عند الكثير من المؤرخين الذين كتبوا على شخصيته، للمزيد أنظر: جب، تاريخ الشعر العثماني، ص ص 05-06.

Gibb : A histoiry of Ottoman Poetry, Vol 03, London, . 1901, p.02

(10) اسكندر جلبي: كان رجلا ثريا للغاية وجد مشنوقا في مدينة بغداد، كان له اهتمام كبير بالأدب والشعر، أنظر: زينب سعد زغلول، المرجع السابق، ص 169.

(11) زينب سعد زغلول، المرجع نفسه، ص 158 .

(12) سليمان القانوني، مخطوط ديوان محبي، اسطنبول، 1308هـ، ص 21.

(13) المصدر نفسه.